

التمثل البيكارسكي وتجليات الاغتراب الوجودي في احتراق السراب لمنى بشلم: مقارنة تحليلية
Picaresque Representation and Manifestations of Existential Alienation in *The Burning Mirage* by Mouna Bechlem: An Analytical Approach

* سمراء جبيلي

Samra Djebaili

مخبر المختل الشفوي وحضارات المشاهدة والكتابة والصورة، جامعة باتنة 1 (الجزائر).

جامعة عباس لغرور خنشلة (الجزائر)

University Abbes laghour kenchela (Algeria)

djebaili.samra@univ-kenchela.dz

تاريخ النشر: 2025/12/02

تاريخ القبول: 2025/10/23

تاريخ الإرسال: 2025/09/15

ملخص البحث

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن التمثل البيكارسكي وتجليات الاغتراب الوجودي في مجموعة "احتراق السراب" للكاتبة منى بشلم، وذلك من خلال تحليل البنية السردية، وبناء الشخصيات، ومظاهر التشظي النفسي والاجتماعي. تنطلق الدراسة من إشكالية محورية مفادها: كيف تتجسد خصائص الأدب البيكارسكي في المجموعة القصصية، وما علاقتها بصراع الذات والاعتراب في واقع مأزوم؟ تركز القراءة على عناصر تُعالج التششت، الاعتراب النفسي، العزلة، المفارقة، والسخرية بوصفها أدوات فنية تُحاكي فلسفة التيه والقلق الوجودي. كما تكشف عن شخصيات متشظية تعيش على هامش المجتمع، وتسعى خلف أوهام تتبدد في كل نهاية.

وقد خلُصت الدراسة إلى أن احتراق السراب تُعيد إنتاج النموذج البيكارسكي ضمن سياق معاصر، حيث تتماهى سيرة الذات المهتمشة مع خطاب وجودي ساخر، وتبرز الكاتبة من خلالها أزمي الهوية والانتماء. وتؤكد نتائج البحث أن العمل يمثل تجربة سردية عميقة في مساءلة الواقع، وتكريس الأدب كفعل مقاومة وجودية وجبالية. الكلمات المفتاح: تمثيل، بيكارسكية، اغتراب، وجود، ذات.

Abstract :

This study explores the picaresque and existential alienation in *The Burning Mirage* by Mouna Bechlem, through an analysis of the narrative structure, character development, and psychological and social fragmentation. It poses a central question:

How are picaresque features embodied in the collection, and how do they reflect the self's conflict and alienation in a crisis-ridden reality?

The analysis focuses on dispersion, alienation, isolation, paradox, and irony as artistic tools expressing existential anxiety and the philosophy of wandering. The characters are fragmented, living on society's margins and chasing illusions that constantly fade.

The study concludes that The Burning Mirage reimagines the picaresque within a contemporary framework, where the marginalized self intertwines with a satirical existential discourse, exposing identity and belonging crises. Ultimately, the work affirms literature as a form of existential and aesthetic resistance.

Keywords: Representation, Picaresque, Alienation, Existence, Self



مقدمة

تُعد البيكارسكية من الظواهر الأدبية التي تعكس الاضطراب الاجتماعي والوجودي، حيث تتسم أعمالها بشخصيات هامشية تجوب الحياة بلا استقرار، مدفوعة بواقع قاس وظروف خائفة. في مجموعة احتراق السراب للكاتبة منى بشلم، نجد تجليات واضحة لهذا الأدب، حيث يتمحور السرد حول شخصيات مأزومة، دائمة الترحال، متشظية بين البحث عن الذات والوقوع في شرك الاغتراب. يتخذ هذا الصراع أبعاداً نفسية واجتماعية وسياسية.

يمكن تتبع تجليات البيكارسكية في المجموعة القصصية احتراق السراب للكاتبة "منى بشلم"، من خلال الصراع القائم بين الذات والاغتراب. تتجسد هذه السمة في الشخصيات التي تبدو متشردة فكرياً وعاطفياً، باحثة عن معنى لوجودها في بيئة تتسم بالقهر والضياع. إذ تقدم الكاتبة شخصيات تنقل بين أمكنة مختلفة، سواء كانت جغرافية أو نفسية، مما يُضفي البعد البيكارسكي في النص، إضافة إلى العزلة، والمفارقة، والسخرية كأدوات لتفكيك العبثية.

يؤكد هذا التحليل مقارنة لعدد من القصص التي تتضمنها المجموعة، مثل: هوامش الوجع، براءة بياض، رسائل ألف عام خلت، سيجارة لمنصف الحلم، رجال الحافة الحادة، سراديب القدر، نصف وسط من كل شيء، بوح الصمت، حيث تنكشف الأحلام الشخصية بوصفها سراياً يتبدد عند كل نهاية، في بنية سردية متقطعة، حيث تتحرك الشخصيات عبر مشاهد حياتية متناثرة، تتخللها محطات مليئة بالمعاناة والانكسار. كل قصة تفتح نافذة على واقع آخر، مما يجعل التجربة السردية أقرب إلى مغامرات شخصية متشظية.

تنطلق هذه الدراسة من إشكالية محورية مفادها: كيف تتجسد ملامح التمثل البيكارسكي في احتراق السراب، وما علاقته بتجليات الاغتراب الوجودي لدى شخصياتها؟ ويهدف البحث إلى تحليل البنية السردية، والشخصيات،

والفضاءات، للكشف عن الكيفية التي توظف بها الكاتبة الأساليب الفنية لتعريف الواقع، والتعبير عن تمزق الذات وقلقها الوجودي.

أولا مفاهيم أولية:

1- التمثيل / التمثيل

مصطلح "التمثيل" في السياق السردى يُستمد من المعنى المسرحي، ويشير إلى طريقة عرض الحكاية من خلال أفعال الشخصيات وأقوالها دون تدخل مباشر من الراوي. يميز تودوروف بين السرد، حيث يُنقل الحدث بصوت الراوي وتغلب الموضوعية، والتمثيل، حيث تُستخلص الحكاية من خطاب الشخصيات، وتبرز الذاتية اللغوية. وتتقاطع هذه الثنائية مع مفاهيم النقد الأنجلوسكسوني (السرد/العرض) ومع ثنائية أفلاطون الشهيرة: النص والمحاكاة¹. وبهذا تتحول المركزية من الراوي إلى الشخصية كفاعل لها حق القول وهي الصوت المهم في بناء المعنى.

2- البيكارسكية

تُعَد البيكارسكية (Picaresque) لفظاً أدبياً نشأ في الأدب الإسباني، وتحديدًا من خلال رواية "lazarillo de tormes" عام (1554)، اعتبارها أول نموذج بيكارسكي تعكس الرواية بيئة المجتمع الإسباني أثناء انتقاله من النظام الإقطاعي إلى نظام ما قبل رأسمالي ناشئ، حيث اضطرت فئات اجتماعية هامشية بلا نسب للتغلب على مصيرها القائم عبر الخداع والذكاء²؛ أي رواية تسرد مغامرات بطل من الطبقة الدنيا يُعرف بالـ pécara، أو هامشي لا يهتم بالقيم ومسائل الأخلاق، ينتقل من مكان إلى آخر، ويخوض مغامرات مليئة بالمفارقات، مما يجعله معبراً عن التمزق الاجتماعي والإنساني.

بحسب ما نقله الدكتور "جميل حمداوي" فإنّ هذا الأدب انتقل بعد ذلك إلى فرنسا وألمانيا وإنجلترا وأمريكا، ليمثل رواية تتناول حياة الشطاري أو البيكارو، وهو بطل مهمش ومخادع ومغامر، تصفه الأكاديمية الإسبانية بأنه شخصية مأكرة، ساخرة، متحررة، تعيش حياة قلقه وغير مستقرة، ويُنظر إليه كصعلوك متشرد يقتات على الهامش³. بهذا تمثل شخصيته الصوت الناقد للسلطة والمتمرد على نظامها لتعريفه.

وجد الأدب الشطاري بصفته صنفاً أدبياً جديداً إقبالاً واسعاً التطاق لما نشر "ماتيو أليان Mateo Aleman" سنة 1599 الجزء الأول من روايته الطويلة "غوزمان دوالفراش Guzman de Alfarache" التي صدر الجزء الثاني منها عام 1604، ونشر "دو كفيدو de Quevedo" من بعد روايته "التصّاب El Buscon" سنة 1626، ويبدو أنّ ثمة إجماع شبه تام على أنّ تلك الكتب الثلاثة هي التي تُمثّل الأدب الشطاري قبل وأفضل من غيرها. أما المعايير التي يستند إليها النقاد ومؤرخو الأدب في هذا السياق فتتمثل أساساً في الأسلوب السير ذاتي شكلاً وفي ثيمات الجوع والتشرد التي تهّم البطل مضموناً، بمعنى كل نص يحكي ضمير الأنا قصة فقير حادّ الذهن يحتال على الميسورين خلال تنقلاته المتواصلة⁴.

3- الاغتراب

يُعَد الاغتراب من أكثر المفاهيم إثارة للجدل في الحقول الفكرية والنفسية، إذ يكشف عن تمزق خفي في صلة الإنسان بذاته أو بعالمه الخارجي. وقد شكّل هذا المفهوم محوراً لتأملات عميقة لدى النفسيين والوجوديين،

نضع هنا مفهومًا للاغتراب مستمدًا من نظرية (سيجموند فرويد Sigmund Freud) في التحليل النفسي يرى "أنّ الاغتراب ينشأ نتيجة الصراع بين الذات الإنسانية والضوابط التي فرضتها الحضارة أو المدينة، حيث تتولد لدى الفرد مشاعر الضيق والقلق حين يواجه بضغط الحضارة الحديثة وتعقيداتها المختلفة، فيلجأ الأنا للكبت كحل للصراع الناشئ بين رغبات الفرد وضوابط المجتمع فيتولد الشعور بالاغتراب"⁵.

ويعني الاغتراب لدى الفيلسوف مارتن هيدجر Mrtin Heidegger "بربطه المباشر بين مفهوم الغربة وبين ما أساء الوجود الزائف Inauthentic، الذي يتخلل فيه الإنسان عن مسؤوليته وما يريد، ويمنح قرار الاختيار لغيره، والوجود الأصيل Authentic، الذي يمارس حريته ويتخذ قراراته بذاته بوعي كامل دون ضغوط"⁶.

ظهر المفهوم النفسي والوجودي للاغتراب متطهرين متكاملين لأزمة الكائن في العصر الحديث؛ ففي حين يكشف فرويد عن اغتراب الذات نتيجة صراعها مع البنى الحضارية المانعة، يذهب هيدجر أعمق، ليربط الاغتراب بجوهر الوجود نفسه، حيث يفقد الإنسان أصالته ويعيش وجودًا زائفًا حين يتنكر لحريته ومسؤوليته الوجودية.

ثانيا/ الذات المهمشة بين سلطة الواقع ومرايا التخيل

يتبدى حضور الذات المهمشة في "احتراق السراب" عبر خطاب سردي يُجسّد تمزّق الشخصية بين وطأة واقع سلطويّ ضاغط، وسعي مضطرب نحو الانفلات من قوالب القهر والاصطفاف الاجتماعي. وتُقارب هذه الذات من خلال بعدين متكاملين: أولهما، تمثّل التيه الداخلي بوصفه انعكاسًا لبنية مجتمعية تُتّرس الإقصاء والنشيو، وثانيهما، الكشف عن ملامح التشنّت الوجودي الذي يفتح المجال لمغامرة سردية غير مكتملة، مشروطة باللاتقين والانفصال عن الثواب. وبذلك، تتشكّل علاقة الذات بالعالم في صورة حركة مزدوجة من الانكسار والمقاومة، داخل فضاء حكائي متشظّ، يُقوّض مركزية المعنى، ويزعزع إمكانات الانتماء والهوية المستقرة.

1- الذات النائمة والمجتمع القاهر

يتأسس هذا العنصر على ثنائية بيكارسكية مركزية؛ من جهة الذات المهمشة، الضعيفة، الممزقة داخليا، ومن جهة أخرى، المجتمع بوصفه سلطة قهوية لا ترحم، تدفع بالفرد إلى التيه والاغتراب، هذا التوتر هو المحرك السردية الأساسي، حيث يكون البطل البيكارسكي (picaro) ضحية لظروف أكبر منه، تُجبره عليه أن يراوغ ويتأقلم ويتلون للبقاء على قيد الحياة.

ترسم بشلم ملامح شخصيات تعاني من التهميش والضياع، وغالبًا ما تكون ضحايا ظروف اجتماعية أو سياسية أو نفسية تدفعها إلى حالة من الاغتراب. تقول في جزء "براءة بياض": "الكتابة فعل احتراق، غارقة في فراغ ممتد بين دفتين من صخر، تجرّها ذاكرة الشجن الأحمر للثوب الأبيض الذي أرغمت على ارتدائه، وكانت طفلة في السادسة من العمر، لا تعلم لم ارتداء الأبيض اليوم دون كل يوم"⁷.

تمثّل الذات هنا بالمتقابلات الضدية التي تنسج الشجن الذي أحسسته الذات بفقدان والدها الذي كان يحميها، وهنا يحدث الانفصام في الشخصية فلا تُدرك الصواب من الخطأ، الذات هنا مشبعة بشعور ضياع، غير قادرة على فهم ما يجري حولها، تُرغم على ارتداء الأبيض، رمزًا للبراءة أو الطهر، لكنها لا تدرك المعنى، مما يخلق فجوة بين الوعي والواقع.

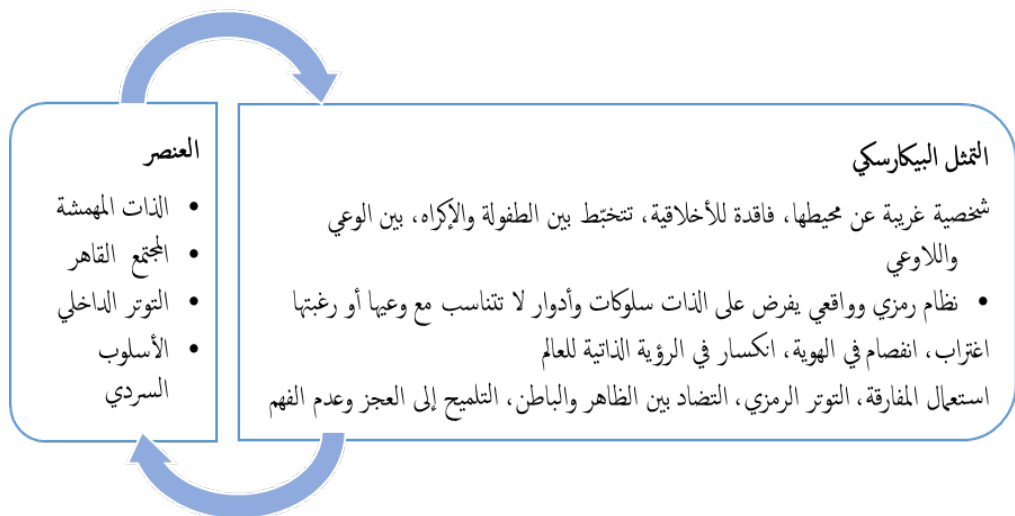
فالاحتراق داخلي، والفراغ يبتلعها، وهو ما يتناغم تمامًا مع صورة البطل البيكارسكي؛ بطل هامشي، فاقده للسيطرة، مدفوع بذاكرة الألم، والثوب الأبيض يصبح هنا رمزًا إشكاليًا:

- من الخارج: يوحى بالنقاء، الطفولة، التقبل الاجتماعي.

- من الداخل: يحمل ألمًا وإكراهًا واعتصابًا للوعي.

هذا الازدواج بين الظاهر والمخفي، النقاء المصطنع والمعاناة الداخلية، هو ما يجعل الشخصية بيكارسكية بامتياز، تعيش على هامش الحقيقة، وتنتقل بين أوهام البراءة وواقع القهر.

دلالة العنوان "براءة بياض"؛ براءة توحى بشيء نقي وبريء، بياض هو الامتداد البصري لهذا المفهوم. كما قد يكون إشارة إلى الفراغ الذي يتخفى خلفه الوهم، أو إلى البراءة التي يتم فقدانها سريعًا عند الاصطدام بالواقع القاسي. هكذا، يتحول العنوان نفسه إلى مفارقة بيكارسكية: البياض الذي يُفترض أن يرمز للطمأنينة، يصبح رمزًا للفراغ والتشوّه الداخلي. في "احتراق السراب"، يكون هذا العنصر إشارة إلى شخصيات تحاول التمسك بأوهام الطهارة، لكنها تجد نفسها محاصرة بتناقضات الوجود.



مخطط رقم 1: يظهر التمثل البيكارسكي والذات القاهرة

غالبًا ما تكون الشخصية هامشية أو مضطهدة، تعيش على الحيلة والتنقل، وتواجه العالم بسخرية لازدة. في احتراق السراب، تتجلى هذه الملامح من خلال شخصيات فقدت إحساسها بالانتماء، يمثّل هذا في قول: "هي زيارتي الأولى إلى هذه البلاد، ضحك، غمري، ثم دقق النظر بملامحي وأكد أي أنا، أي هي، اعتذرت منه، انصرفت، غاضبة ربما لأنني عرفت حقيقة مرة عن تلك التي تشبهني، حاولت إيجاد السكينة في أي شيء، لم أستطيع، فأسئلة الرفيقة طوقتني، خفقتني"⁸.

تسافر الشخصيات بين الأماكن أو تنتقل بين أزمنة متداخلة، لكن دون أن تجد مرفأً حقيقياً. إذ لا تنتمي لمجتمع واضح، بل تعيش على تخومه، تتأرجح بين التمرد والاستسلام. الذات هنا لا تتعرف على نفسها في مرآة الآخر: حين يجبرها الرجل بأنها "هي"، يتولد فيها انفصال داخلي، كأنها ترى نسخة عنها لا ترغب بالالتقاء إليها. هذا يفتح الباب على اغتراب مزدوج:

- مكاني: "زيارتي الأولى"، أي اقتحام مكان غريب بلا جذور

- هوياتي: الشبه بينها وبين أخرى، وفقدان الشعور بالتفرد والتميز

ردّ الفعل: الغضب، النفور، الهروب، وهي استجابات بيكارسكية كلاسيكية تجاه مجتمع لا يمنح الذات مكاناً آمناً فيه. ويمكن تحديد مظهرات التمثل البيكارسكي وفق هذا المخطط الذي يبين أنّ الذات لا تملك زمام أمره، بل يتم الرّجح بها في مصائر لا تفهمها ولا تختارها، هي شخصية تقدّم إنساناً هشاً، متقلّباً، يعاني.



مخطط رقم 2: يبين مظهرات التمثل البيكارسكي في احتراق السراب

2- التشتت والمغامرة المفتوحة:

يرتكز هذا العنصر على سمتين جوهريتين هما:

● التشتت: غياب التسلسل السردى الصارم، واعتماد الحكاية على مشاهد متناثرة، متقطعة، تُشبه الحياة اليومية المتفككة لشخصيات بلا هدف واضح أو مصير محسوم.

● المغامرة المفتوحة: لا توجد حبكة مغلقة أو خاتمة تقليدية، بل سلسلة من الأحداث والمواقف التي تنتقل الشخصية من وضع إلى آخر دون أن تغتفر جوهر مصيرها أو تمنحها خلاصاً.

تُروى الأحداث في احتراق السراب عبر مشاهد متفرقة أشبه بفسيفساء سردية، حيث لا تتبع القصص تسلسلاً زمنياً واضحاً، بل تعتمد على التدفق الحر للذكريات والأحداث المتشظية، كقول أحد الشخصيات: "عدت إليها أبحت عني بين مقلتيها هل تغيرت تلك النظرة أم أنها للخلود خلقت، ما كان ثمة نظرة ولا جثمان، دفنت سريعاً أمس..

هكذا قالوا دخلت أعزى والدتها، تضمني إلى صدرها تبقيني هناك، أغرق بعطرها أنثى الحلم.. أكانت تعلم أنها ضحية بديلة للقدر، أم أنها ما علمت⁹.

تندفق الأفكار والذكريات والصور بدون ترتيب زمني أو منطق سببي صارم. وتوجد قفزات ذهنية من: (البحث عن الذات، فقدان الجثمان، العزاء، العناق، تأملات حول القدر)، وهذا يخلق إحساسا بالتشظي الداخلي، ويعبر عن فقدان الاتصال بالواقع، وهو ما يتوافق والشخصية المأزومة التي لا تملك وعيا مستقرا. فالشخصية لا تملك خلاصا نفساً أو رمزيا بل دخلت في تجارب متداخلة تفقدها اليقين، وتُبقى الأسئلة بلا جواب، أم أنها ما علمت؟ وبهذا تكون الرحلة داخل الذات الممزقة تجارب مفتوحة على الاحتمال والانكسار مما يعكس اضطراب الشخصيات وفقدانها لليقين.

وفي موضع آخر نجد هذا القول لأحد الشخصيات: "أين جمال جسدي أين الجمال كله.. هو لم يقل يوما أنني جميلة، تراني جميلة حقا أم أن كل الباقيين كذبوا.. سيجارة أخرى.. لكن على انفراد"¹⁰.

يتشكل هذا المقطع من مجموعة تساؤلات متتابعة، تتراوح بين الجسدي والنفسي والاجتماعي، دون رابط سببي مباشر؛ فمن السؤال عن الجسد تنتقل إلى المقارنة مع الآخر، ثم التشكيك في مصداقية الآخرين، ثم الانتقال المفاجئ إلى فعل التدخين، وهو فعل لم يُرر سرديا، لكن جسد تشتت نفسي، وهذه التحولات المفاجئة في الوعي، هي من سمات الشخصية البيكارسكية (pizaro) حين تأخذ طابعا نفسيا فمرة تكون اليقظة كأسلوب للحياة، ومرة الخضوع لقوانين ومقاييس المجتمع الذي تنغمس إليه¹¹. التشتت هنا ليسا نقصا بل توظيف سردي يُترجم هشاشة الهوية الذاتية للشخصية، وضياعا بين نظرة الآخر وسؤال الذات.

كما يتضمن هذا المقطع المقتبس من المتن القصصي انخراط الشخصية في رحلة قاسية داخل أسئلتها كمغامرة داخلية، فلا هدف واضح من السؤال ولا إجابة، بل كل سؤال يفتح على سؤال آخر أعمق وأكثر قساوة، في حركة لولبية تقود الذات المتحدثة إلى فراغ وجودي بدل الوصول. فالتدخين مثلا مجرد أداة تفرغ نفسي مؤقتة، وإصرارها على أن يكون الفعل انفرادي، دلالة على رغبة في عزل الذات عن التفاعل حتى مع متعتها البسيطة، مما يؤل هذه اللحظة إلى مغامرة منقطعة، باردة، خالية من المعنى. تتركز ديمومة القلق والفراغ، وتُبقى الشخصية في وضعية بحث دائم بلا يقين. إن كل قصة تبدو كجزء من رحلة غير مكتملة، حيث لا يوجد استقرار أو نهاية حاسمة، وإنما سلسلة من التجارب التي تعمق الإحساس بالضياع. ويظهر التمثل كآلائي:

- التشتت: غياب تسلسل زمني، بنية فسيفسائية، قفزات في الزمن والوعي.
- المغامرة: لا هدف نهائي، لا تطور حاسم، بل انتقال مستمر في فضاءات وجودية.
- الشخصية: تبحث عن ذاتها في الآخر، في الذكرى، في العاطفة، لكنها لا تجد إلا السراب.
- الزمن: غير خطي، مشوش، يُستخدم كمرآة للنية الداخلي.

○ اللغة ؟ شعيرة، مشبعة بالاستفهام والتأملات الوجودية.

ثالثا/ تمزقات الذات وآليات السخرية في فضاء الاغتراب

تُجسّد احتراق السراب تمزقات الذات المتنقلة بين واقع قاهر وتخيل مضطرب. يرصد النص انفصال الشخصية الداخلية وتفكك هويتها ضمن فضاء الاغتراب النفسي. وتبرز آليات السخرية والمفارقة، بوصفها أدوات نقدية سردية، كوسائل تكشف التوترات والتناقضات الوجودية، وتعزّي العبثية التي تحاصر الذات المغترية. ينحو النص بذلك إلى تقديم قراءة بيكارسكية تصور الذات المنشطية، المحاصرة بين تمردها على الواقع وضياها في متاهات الوجود، في مواجهة مجتمع يفرض هيمنته ويفقد الإنسان موطنه واستقراره. يأتي هذا التحليل ضمن المقاربة البيكارسكية التي تهدف إلى استجلاء تجليات الاغتراب في النص السردى.

1- الاغتراب النفسي نحو فهم التفكك الداخلي:

تعتبر مسألة الاغتراب النفسي أحد المحاور المركزية في -احتراق السراب-، حيث يعاني الأبطال من التفكك الداخلي الذي يعيق تماسكهم الشخصي. تبرز هذه الحالة في كيفية تعاملهم مع أنفسهم ومع الواقع المحيط. يشعر الأفراد بالانفصال عن ذاتهم، ويعبرون عن صعوبة في فهم أو تبرير سلوكياتهم وأفكارهم، مما يجعلهم يواجهون حالة من الغربة الداخلية. تقول الشخصية: "أخشيني، قلت لها، وأخشى كل آدمي، ما عندنا الإنسان، إنّا ننهش الحياة نهشا، نمزق الآخر حتى لو كان الصدر الدافئ حتى الآباء صاروا موضع الدوس"¹².

يكشف هذا المقطع عن تمثّل واضح للبنية البيكارسكية في سياق حدثي، تتجلى فيه الذات ككيان هامشي، ناظم، ومتفكك من كل منظومة قيمية أو شعورية. في قولها: "أخشيني، قلت لها، وأخشى كل آدمي"، نلمس تحول الذات إلى مصدر تهديد للآخر، ما يُبرز سبّات الشخصية التي تعيش خارج الإطار الأخلاقي المألوف. هذا التوتر الداخلي يتقاطع مع الاغتراب النفسي الذي "يُعدّ لونا من ألوان المعاناة الداخلية للنفس الإنسانية"¹³، إذ تعمق عزلة الذات لا عن الآخر فحسب، بل عن ذاتها أيضًا، في حالة من الانفصال الشعوري العميق، يتجلى في العبارة المفتاحية: "ما عندنا الإنسان". هنا، يتهاوى التصور الإنساني المشترك، وتُختزل العلاقات بمنطق افتراضي مربع.

وتبلغ أزمة الهوية ذروتها في قولها: (ننهش الحياة نهشًا... حتى الآباء صاروا)، فالصدر الدافئ لم يعد مصدر طمأنينة، بل ساحة للتريق، في إشارة إلى تفكك داخلي شامل يمس البنية النفسية والرمزية على حد سواء. بهذه الصورة، تُبنى الشخصية كذات مأزومة، مفككة، تنهش مع الرفض والانتماء، وتُعبّر عن وعي مأساوي بفقدان المعنى، وهو ما يشكل جوهر التمثّل البيكارسكي في المتن، وعمق الاغتراب النفسي الذي يُقوّض تماسك الذات من الداخل. هذا الاغتراب ليس مجرد شعور بالابتعاد عن الآخرين، بل هو أيضًا عدم التوافق مع الذات، ما يؤدي إلى حالة من التشويش الدائم حول الهوية والهدف.

يشكل عنصر العزلة النفسية والوجودية إحدى الركائز الأسلوبية التي تقوم عليها التمثلات البيكارسكية في المجموعة القصصية، إذ تظهر الشخصيات النسوية، خصوصًا سارة وسلوى، في حالة انفصال داخلي متفاقم عن الذات والمحيط، بما يُحوّل العزلة من خيار فردي إلى قدر وجودي يُعبّر عن فقدان الانسجام مع العالم ومع النفس. وهذا ما

ينعكس في العبارة الآتية: "كسر قرارات العزلة، الوحدة، ونبد الرجال، خوفاً، أنا أخاف جداً أن أبتلى، لا أقبل الدمع أبداً".¹⁴

تفصح الذات عن وعي مأزوم، تحركه آلية نفسية تتخذ من العزلة موقفاً وقائياً ضد الألم، لكنها تعيد إنتاجه في صورة خوف مضاعف، تتآكل فيه الحدود بين الرغبة والرفض، وبين الذات والآخر. فالعزلة هنا ليست اختياراً وجودياً ناضجاً، بل انفصلاً قسرياً يعبر عن هشاشة داخلية ورفض لمواجهة الجرح.

تعكس المقولة تمثلاً دقيقاً للعزلة النفسية، حيث لا تمثل القطيعة مجرد انسحاب اجتماعي، بل تكشف عن انفصال داخلي ناتج عن صدمة وجدانية. فاختيار العزلة ونبد العلاقات العاطفية لا ينبع من موقف وجودي ناضج، بل من خوف مزمن من الانكشاف، يتخذ صورة إنكار للانفعال وكبت للرغبة.

يُشير رفض البكاء في الجملة الختامية إلى قمع انفعالي يقصي حتى مظاهر الألم، ما يدل على فقدان التوازن النفسي وتوثر العلاقة بالذات. تتحرك الشخصية في فضاء من الانغلاق الدفاعي الذي يُنتج عزلة خانقة لا تقضي إلى الاستقرار، بل تُعمق الاغتراب.

يتقاطع هذا الوضع مع السرد البيكارسيكي الحديث، حيث لا يظهر البطل كفاعل أو نائر، بل كذات مُهمشة، تعيش القطيعة لا كخيار بل كقدر، وتعاني من اغتراب مركب يعطل اندماجها في العالم. وهكذا تتحول العزلة في *احتراق السراب* من موقف شخصي إلى تجربة وجودية مأزومة، تُجسد التمزق النفسي والشرح الداخلي العميق.

يُلاحظ في قصص المجموعة أن الاغتراب ليس مجرد تجربة جسدية أو مكانية، بل هو حالة داخلية تعيشها الشخصيات. فحتى في موطنها الأصلي، تقول: "في عزلي لا أملك حريتي، كان على أن أقع تلك القطرات الصوتية من التدفق نحو أي غاية. لم يك ذلك سهلاً، مع أنني أكابد لأنال صدى رغباتي، فإن الصدى يفلت مني أحياناً، لم ألعب دوري الأتم، لم ألتزم بالفقد التام، وسطقي تتمرد بين الحين والحين تعلن عن نفسها. تفضح أسرار الأمس بي"¹⁵.

تُجسد هذه العبارة عزلة وجودية مشوبة بتوتر داخلي، حيث تغدو العزلة سبباً لا ملاذاً، وتنقلب الحرية إلى شعور مراوغ، يتبدد مع كل محاولة للتأهي مع الذات. فقول: "في عزلي / لا أملك / حريتي" يختزل هذه المفارقة الحادة بين الرغبة في الانفصال كخلاص، والانغلاق كقيود.

تُضمر "القطرات الصوتية" أصواتاً داخلية مقموعة، رغبات مشتهية تُمنع من التدفق، لتكشف عن ذات تُكابد صداها، لكنه يتفلسف منها كما يتفلسف المعنى من اللغة حين تفسدها الرقابة النفسية. وتُضيء الجمل اللاحقة تمرقاً داخلياً مقلقاً: ذات تنسحب لكنها لا تذوب تماماً، ترفض الفقد التام، وتُبقى على تمرد خافت يفضح هشاشتها.

أما الإشارة إلى "أسرار الأمس" فتربط هذه العزلة بعبء الذاكرة، حيث لا تنقطع الذات عن محيطها فحسب، بل تعيش منكمشة داخل ماضٍ لا يكف عن محاكمتها. هكذا تتبدى الشخصية في صورة بيكارسيكية مأزومة، لا تعيش العزلة كخيار، بل كقدر، يتضاعف فيه الاغتراب ويتشظى المعنى بين الخوف والرغبة، بين القمع والحين إلى صوت مفقود.

2- المفارقة والسخرية أدوات تعرية العبثية

نجد أن الكاتبة منى بشلم، توظف السخرية في مجموعتها القصصية لكشف تناقضات الواقع، فتشقيط شخصياتها في مواقف عبثية تجعل القارئ يتساءل عن جدوى الرحلة بأكملها. هذه السخرية ليست مجرد أداة لغوية، بل هي فلسفة

تعكس العجز عن مواجهة واقع خائق، حيث يصبح الضحك وسيلة دفاعية ضد القهر. تقول على لسان أحد الشخصيات: "يضحك ربيع العمر ساخرا من التهديد بالموت، مع أي أعرف جيدا أن بيني وبين الموت صلة دم، قرابة دم، أشياء كمثّل قدر مفاجئة مباغتة، لا تأبه بالاستئذان"¹⁶.

تعكس السخرية هنا التحول من مواجهات وجودية إلى مواقف هستيرية للضحك على الموت، في تجربة تسعى لتحويل القهر إلى مشهد ساخر. هذه المواجهة الداخلية تعبّر عن وعي مُثقل بالاعتراب، حيث يُسخر الذات كتحصين ضد الموت كواقع خائق.

كما تُوضّح الدراسة الموسومة السخرية في الرواية النيو بكارسكية the neopicaresque، فإن السخرية تعمل على "فضح زيف العالم الاجتماعي" عبر التهمك على الأوهام الاجتماعية والقيم الزائفة. في النص¹⁷، يعتبر الضحك على الموت نهجاً لتحويل فرع ما ورائي إلى تحدّ ساخر.

وتمثّل الاغتراب الإنساني في الاقتراب من الموت بهدوء وسخرية يُشير إلى حالة اغتراب نفسي عميق؛ الذات تدرك حدودها ولا تنفي، فتختار الضحك بدلاً من الاستسلام. هذا يُجسّد "البكارو" الحديث: شخصية مهاجرة بين الموت والحياة، بلا انتماء أو جذور، تسعى للنجاة عبر الحكمة الساخرة بدلاً من الخلاص¹⁸.

المفارقة هنا، بين الضحك وبين إقرار قرب الموت، تكشف عن التوتر البيكارسكي العميق بين التسلّط على الواقع عبر السخرية، وبين الإحساس بعجز كامل في مواجهة القوى الكبرى كالقدر أو الموت. هذا التوتر جوهر في البيكارسكية، حيث البطل الساخر هو من يتحداها بلا هندسة لفظية بل بمحاولة تهكمية فكاهية.

تقول: "حملت موتي المكتوم قابلتني رفيقة بابتسامة مغتظة ألفت أمرا، أن سارعي لتبديل هذه الملامح بشيء من الماكياج... فالمدير يطلبك. لم يسمع أحد نخبي صمتا، لم تمنح كلماتي مجاري نحوهم. خرس الصمت. ارتسمت الابتسامة الفاجرة"¹⁹. هذا الجزء يحتوي على عدة مفارقات:

■ **مفارقة الذات/الظاهر:** الشخصية تحمل "موتها المكتوم"، في إشارة رمزية إلى الانهيار النفسي أو الحزن العميق، ومع ذلك يُطلب منها أن "تبدّل ملامحها" بالماكياج. هنا تنشأ مفارقة حادة بين الداخل والخارج: حالة موت رمزية تُقابل بمطلب تجميلي سخيّف.

■ **مفارقة السلطة/الذات:** السلطة ممثلة بـ «المدير»، لا تتعامل مع الفرد بوصفه كائناً ذا شعور، بل كواجهة يجب أن تبدو مقبولة بصرياً. هذا التصادم يُبرز سخرية النظام البيروقراطي من المعاناة الفردية، ويكشف فراغ الخطاب السلطوي وانفصاله التام عن الإنساني.

■ **مفارقة اللغة/الحدث:** "الابتسامة الفاجرة" تأتي في ذروة المشهد كخاتمة جارحة، تحوّل لحظة الحزن إلى مزحة، وتُبطّل أي أفق للتعاطف. الابتسامة هنا ليست دلالة فرح بل مفارقة بصرية جارحة، تقوّض منطق المشهد وتعيد صياغته كنموذج للامبالاة القاتلة.

كل هذه المفارقات تعمل على تفكيك المشهد من الداخل، وتسخر من بنيته النفسية والاجتماعية، وتفتح المجال أمام قراءة عبثية للعلاقات الإنسانية داخل النص.

أما السخرية هنا ليست مباشرة أو لفظية، بل بُنية سردية صامتة: يُطلب من الشخصية التجمل، بينما تعيش موتاً داخلياً. لا أحد يسمع، لا أحد يستجيب، ثم تأتي "الابتسامة" كدعوة للسخرية الصامتة. وتظهر في التساؤلات المطروحة كسخرية من فكرة التواصل الإنساني ذاته، ومن قابلية العالم لساع الآخ. وصورة "الابتسامة الفاجرة" هي سخرية بصرية وجودية: تقلب منطق المشهد من الحزن إلى الفجور الرمزي، وتحيل كل ما سبق إلى مهزلة مشهدة، تذكرنا بأدب العبث (كافكا)، حيث تتلاشى الحدود بين الجدية والمهزلة، بين الحزن والضحك المر. المخطط يلخص ما سبق ذكره:



مخطط رقم 3: يبين أدوات تعرية العبثية وكيف تعمل في النص القصصي احتراق السراب

هذا المقطع يُفكك النسيج القيمي والاجتماعي الذي يُنتج الاغتراب، ويُعزّي البنى الشككية التي تُطوق ذات الفرد وتمنعه من التعبير.

خاتمة

في ختام هذه المقاربة التحليلية لتمثل البيكارسي وتجليات الاغتراب الوجودي في المجموعة القصصية "احتراق السراب" نتخلص الدراسة إلى جملة من النتائج المهمة التي تُساهم في فهم أعمق للمتن القصصي ودلالاته سواء على مستوى بنيته الجمالية أو حملته الوجودية:

- تظهر الشخصية في المجموعة مصممة على التحدي، والسعي وراء حلم أو هدف قد يبدو بعيد المنال على الرغم من التشاؤم، والظروف القاسية، فهذا الخيار وجودي مضاد للانهازم، ويعبر عن البطل البيكارو المُتحدى للسقوط، ويصبح التهميش دافع قوي للفعل.

- يُجسّد الإصرار المتواصل على التحدي في نصوص احتراق السراب ملمحًا بيكارسكيًا أصيلًا، حيث لا ينبع من تفاؤل أو يقين بالخلاص، بل من رغبة داخلية عميقة في الاستمرار بوصفه فعلًا مقاومًا. تتخذ الشخصية هنا موقعها على هامش المجتمع، متشبثة بما تبقى من إرادة فردية، رافضة الانهيار رغم عبثية الواقع وضبابية المستقبل.

- تتضح في نصوص المجموعة القصصية ملامح الأدب البيكارسكي من خلال التركيز على صراعات الشخصيات النفسية والاجتماعية، لا بوصفها حوادث سردية فحسب، بل كأتماط وجود متأزمة تتصارع مع السلطة، الفقر، والعزلة. الشخصية لا تنمو تقليديًا، بل تنتقل بين الأزمت، مجسدة الانكسار الداخلي والتمرد العاجز في آن واحد.

- يُقدّم الواقع بوصفه سلطة قاهرة لا تنفك تحاصر الذات، لا على المستوى الاجتماعي فحسب، بل عبر اختراق البنية النفسية للفرد. القسوة في التصوير ليست مجانية، بل تؤسس لبنية اغترابية عميقة، يتخذ فيها النص موقفًا نقديًا واضحًا عبر توظيف المفارقة، السخرية، والانفصال عن النمط التقليدي للهوية والانتماء.

هوامش:

¹ - ينظر، محمد القاضي وآخرون، 2010، معجم السرديات، ط1، لبنان - دار الفارابي. ص112-113

² - Mary J. Shepherd, 2013, Identity Crisis and the Emergence of the Picaresque In Literature From Early Modern Spain and Twentieth Century Argentina From Early Modern Spain and Twentieth Century Argentina, University of South Carolina. P1

https://paperzz.com/doc/7821315/identity-crisis-and-the-emergence-of-the-picaresque-in-li...?utm_source=chatgpt.com

³ - ينظر، جميل حمداوي، 2008 الرواية البيكارسكية أو الشطارية، مجلة حوليات التراث، الجزائر العدد8، ص 60.

⁴ - إساعيل العثاني، 1999، الأدب الشطاري تعريف جديد لأدب قديم، مجلة آفاق، العدد 61-62، ص 132.

⁵ - أمين حماد، 2021، الاغتراب في الرواية العربية المعاصرة (1952-2000م)، ط1، عمان- مركز الكتاب الأكاديمي. ص 36

⁶ - ينظر، حسن حماد، 2005، الإنسان المغترب عند إريك فروم، القاهرة - مكتبة دار الحكمة. ص 119-122

⁷ - منى بشلم، 2012، احتراق السراب قصص قصيرة، ط1، الجزائر - منشورات الاختلاف. ص 17.

⁸ - المصدر نفسه، ص 61.

⁹ - المصدر نفسه ص 15.

¹⁰ - المصدر نفسه، ص 48.

¹¹ - Syers, J. (2022). Satire in the neopicaresque novel: The committed poetic in European and American picaresque fiction, 1942–1962 (Doctoral dissertation, University of Edinburgh). ERA.

<https://era.ed.ac.uk/handle/1842/39407.p99>

- 12 - المصدر نفسه، ص 34.
- 13 - أحمد علي إبراهيم الفلاحي، 2013، الاغتراب في الشعر العربي في القرن السابع الهجري دراسة اجتماعية نفسية، ط1، الأردن - دار غيداء للنشر والتوزيع. ص 123
- 14 - المصدر نفسه، ص 40.
- 15 - المصدر نفسه، ص 67.
- 16 - المصدر نفسه، ص 8
- 17 - Syers, J. (2022). Satire in the neopicaresque novel: p1
- 18 - Soumia Bennani, 2022, The Return of the Pícaro in Ralph Ellison's Invisible Man, Aleph, Algérie, 9,2, p 236.
- 19 - المصدر السابق، ص 81.

قائمة المراجع:

الكتب:

1. أحمد علي إبراهيم الفلاحي، 2013، الاغتراب في الشعر العربي في القرن السابع الهجري دراسة اجتماعية نفسية، ط1، الأردن - دار غيداء للنشر والتوزيع.
 2. أيمن حماد، 2021، الاغتراب في الرواية العربية المعاصرة (1952-2000م)، ط1، عمان - مركز الكتاب الأكاديمي.
 3. حسن حماد، 2005، الإنسان المغترب عند إريك فروم، القاهرة - مكتبة دار الحكمة.
 4. محمد القاضي وآخرون، 2010، معجم السرديات، ط1، لبنان - دار الفارابي.
 5. منى بشلم، 2012، احتراق السراب قصص قصيرة، ط1، الجزائر - منشورات الاختلاف.
- المجلات:
6. إسماعيل العثماني، 1999، الأدب الشطاري تعريف جديد لأدب قديم، مجلة آفاق، العدد 61-62، ص 139-131.
 7. جميل حمداي، 2008، الرواية البيكارسكية أو الشطارية، مجلة حوليات التراث، الجزائر العدد 8، ص 53-67
 8. Soumia Bennani, 2022, The Return of the Pícaro in Ralph Ellison's Invisible Man, Aleph, Algérie, 9,2, p 235-247.

المواقع الإلكترونية:

9. Mary J. Shepherd, 2013, Identity Crisis and the Emergence of the Picaresque In Literature From Early Modern Spain and Twentieth Century Argentina From Early Modern Spain and Twentieth Century Argentina, University of South Carolina. https://paperzz.com/doc/7821315/identity-crisis-and-the-emergence-of-the-picaresque-in-li...?utm_source=chatgpt.com
10. Syers, J. (2022). Satire in the neopicaresque novel: The committed poetic in European and American picaresque fiction, 1942–1962 (Doctoral dissertation, University of Edinburgh). ERA. <https://era.ed.ac.uk/handle/1842/39407>.